تـمّ تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الرّاحل رمضان لاوند | جميع الحقوق محفوظة © www.RamadanLawand.com

الأديب و المُفكّر الرّاحِل
رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاَوَند
سيّد المنابر

أوليات الفكر الثوري عند العرب

الحلقة الخامسة

بين يدي نظرية الوفرة في الاقتصاد الإسلامي

نسوق بين يدي الموضوع الآيات القرآنية التالية :

قال تعالى في سورة الحجر :

" وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (19) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (20) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (21) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (23) "..

وقال تعالى في سورة الاسراء :

" وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (31) "..

وجاء في سورة فاطر :

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (3) "..

النبات في الأرض مقدر بقدر معلوم موزون .

المعايش في الأرض لكل الناس لا يجوعون فيها ولا يعرون ولا يذلون .

موارد الرزق الأساسية موجودة في خزائن الله فلا يحق لأحد أن يختزن ما عنده منها يمنعها عن الناس مستغلاً وجودها عنده .

الله هو الوارث الوحيد لكل الموجودات بما فيها الأرزاق فلا ملكية في آخر الأمر ولا حيازة حقيقية إلا لله.

قتل الأولاد خشية الفقر جريمة يعاقب الله عليها أشد العقاب لاسيما وأنه هو الرازق يرزق الأولاد والآباء لا شريك له في الملكية وخزائنه تحت تصرف عباده دون استثناء لا فرق بين مؤمنهم وكافرهم .

وعلى الناس جميعاً ، لا فرق بين مؤمنهم وكافرهم ، أن يذكروا نعمة الله عليهم إذ ليس لهم من خالق غيره يرزقهم من السماء والأرض ، مما يحييه المطر النازل من السماء، والنار الخارجة من الشجر، والأسماك السابحة في مياه البحر والثروات الدفينة في باطن الأرض .

وبتعبير آخر : خزائن الله لا تنفد يخرج منها الرزق الى الناس بقدر معلوم وفي حدود أعدادهم التي تزيد وتنقص .

لماذا الجوع ؟

إذا كان الأمر كذلك والرزق كله من عند الله، والرزق عند الله لا ينفد وللناس حق معلوم في هذا الرزق، فمن أين جاع الجوع ؟ وجاءت الأزمات الاقتصادية الإجتماعية ؟ ولماذا يشيع الخوف في صفوف الملايين من البشر؟ ولماذا يتزاحم الناس بالمناكب يدفع بعضهم البعض الآخر في قسوة وعنف وبانفعالات هستيرية تنتفي معها عواطف الإخاء والمساواة والحرية ؟!..

كلّ هذه الأسئلة وأخرى غيرها يتلاحق الواحد منها وراء الآخر في دأب وحيرة وإصرار.

ويجيب القرآن على هذه الأسئلة موجهاً اتهامه إلى الذين يشككون بتصرفاتهم في العناية الإلهية فينزعون ببخلهم وكنزهم للذهب والفضة الثقة برزق الله الموفور يمنعون الخير عن الناس وهم الذين يتظاهرون بخدمتهم . فيقول تعالى في آية 180 من سورة آل عمران : " وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (180) "..

ثم يمضي القرآن الكريم مصعداً لهجته التهديدية المنذرة مصوراً ألوان العذاب الرهيب الذي ينتظر المانعين للخير والرزق عن الناس، فيقول في سورة التوبة في معرض الحديث عن آكلي الأموال بالباطل من الأحبار والرهبان المتظاهرين بعبادة الله والكانزين الذهب والفضة : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ

وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۗ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (35 .."

ويتضح مصدر المأساة ويدرك الناس أن مصائبهم نابعة من الفئة التي تختزن الرزق الإلهي وتتصرف بعقلية من يظن أن السماء والأرض لا تكفيان بما فيهما من الخير لرزق الناس جميعاً . فهم خائفون قلقون جماعون للمال مناعون للخير يفسدون نظام التوزيع الحقيقي للثروة والذي هو وحده القادر على تحقيق التوازن وسلّ السخائم وإشاعة الطمأنينة وتوطيد الأخوة.

وبعبارة أخرى يتضح للناس أن مصدر المأساة هو الفئة التي أفرغت الاقتصاد من محتواه الإنساني الكريم ونزعت منه حوافزه الأخلاقية وحولته إلى جملة من المعطيات المادية الخالصة واعتبرته موضوعاً لصراع قاس عنيف لا هوادة فيه ولا رحمة بين أفراد وجماعات يحتكمون الى شريعة الغاب .

وبهذه العقلية الملحدة بطابع الاقتصاد الإجتماعي، والكافرة بحق الناس في توزيع عادل تمليه روح التعاون ودوافع الأخوة وعواطف الارتباطات الإنسانية الصحيحة ، تنتفي صورة الوفرة في الاقتصاد والثروة التي وضعتها العناية الإلهية بقدر معلوم وفي حدود الحاجة على أوسع نطاق تحت تصرف البشر.

وعندما نتذكر اليوم أن ثلثي سكان الأرض مصابون بأمراض سوء التغذية وأنهم متعرضون للموت جوعاً في الوقت الذى تضاعفت فيه ثروات البشر أضعافاً كثيرة تفوق الزيادة العددية لسكان الأرض مرات كثيرة ، ندرك أن السبب الحقيقي للمأساة هو سوء التوزيع أو فصل مفهوم النمو الاقتصادي عن مفهوم التوزيع العادل . ثم ندرك السبب الذي يدفع واضعي الفلسفة القائلة بارتكاز الاقتصاد على قاعدة الندرة إلى إشاعة المزيد من الخوف وطرح حلول عرجاء نابعة من ظاهرة الخوف هذه . مثل الدعوة إلى تحديد النسل والزعم بأن تزايد السكان هو خطر داهم يهدد البشرية بالزوال . ولو أن الذين يصنعون الحروب لأسباب اقتصادية بعيدة أو قريبة ينفقون الأموال التي تستهلكها هذه الحروب على مشاريع التنمية العالمية لقضي على الفقر منذ بعيد.

إن نظرة سريعة نلقيها على الأرقام التقريبية التي عينها الخبراء لخسارة حرب كالحرب الفيتنامية أو لتكاليف أسلحة الدمار النووية كافية للكشف عن الهوة الرهيبة التي تضيع فيها ثروة البشر ، هذا بالإضافة إلى وجود مجتمعات يبدو فيها الترف الفاسق فى إنفاق الأرزاق والأموال أمام مجتمعات يحرم أبناؤها من هذه الأموال والأرزاق الكفيلة بإحيائها وإنقاذها من مآسي الجوع والمرض والتخلف .

إن ملايين الملايين من الدولارات قد ذهبت أدراج الرياح فحرمت منها البشرية خلال ما مضى من القرن العشريني . وقد وقعت هذه الخسارة بسبب واحد هو فقدان " الأخلاقية " من صميم الفلسفة الاقتصادية الشائعة في العالم المعاصر..

وإذن فهي المادية المتشائمة القلقة التي غرست بذورها كهانة حديثة اختلطت في روحها وأفكارها أرقام وإحصاءات مزاعم مغرورة حمقاء وجهالة بالمحتوى الإنساني الحقيقي الذي هو وحده الوجه السليم لمعنى الوجود المجتمعي .

والأعجب من هذا كله أن الشعب العربي كأكثر الشعوب النامية ما يزال مصراً على استيراد الأفكار من الخارج يتصرف أمام مسؤولياته في تعيين فلسفة تحررية إنمائية تصرف التابع العاجز يدور حول معضلاته دون اقتحام مجاهلها ويستعين بأي رأي يأتيه من الأقوياء والمتقدمين عليه في حقل العلم التطبيقي والنظري ليعفي نفسه من أعباء التجربة الأصيلة والريادة البناءة الهادفة.

وإذن فنحن حين نواجه الرأي الذي يحمله إلينا محاضر من الغرب أو من الشرق لا يجب أن ننسى أنه هو شخصياً يعين موقفه في ضوء نظم كانت وما تزال مصدر الانهيارات المتلاحقة في واقع التوازن العالمي.

وفي عودتنا إلى محاضرة الأستاذ مكسيم رودنسون التي ألقاها في العاصمة اللبنانية يجب أن نذكر بأن المجتمع العظيم ليس هو المجتمع الذي يسيطر على التقنية الحديثة وحسب بل هو المجتمع الذي ينطلق من فلسفة اقتصادية مرتكزة إلى القواعد التالية :

1) الأصل في الاقتصاد هو الوفرة لا الندرة .

2) الاقتصاد لا يحقق أغراضه ما لم يرتبط بخطة توزيع سليمة .

3) خطة التوزيع السليمة تحتفظ للاقتصاد بمحتواه الإنساني.

4) الاحتفاظ بالمحتوى الإنساني للاقتصاد العالمي مشروط بالتحرر من الخوف الذي يحدثه فقر موهوم فيحدث هو بالتالي، أي الخوف ، تسابقاً هستيرياً هداماً الى الحيازة الاعتباطية التي تمزق الوحدة المجتمعية على مستوى الأفراد أو الطبقات أو الدول .

5) إن وحدة المصير العالمي التي تزيل الخوف وتمحو القلق وترفع أسباب العداوات الهستيرية مرتبطة بإيمان عميق يشد أصحابه إلى عناية إلهية خالقة مدبرة حكيمة تتحقق بها الطمأنينة وتشيع بها الرحمة .

وإذن فالسياسة الاقتصادية الصحيحة حصيلة تربية روحية في حوافزها الأساسية وتخطيط موضوعي متحرر من أساليب الاحتكار الدولي .

على أننا في تعريفنا لأبعاد هذه السياسة الاقتصادية لا يغيب عنا أن تنفيذها هو أمر بالغ العسر.

إن هذا التنفيذ مشروط بإعادة صنع الإنسان المعاصر صنعاً يتحرر معه من طغيان الأبعاد المادية التي تبنتها حضارة الغرب منذ أيام غاليليو في بداية عصر النهضة . وهي نفسها الأبعاد المادية التي شن عليها العالم الفرنسي إليكسي كاريل حملته الشعواء في كتابه " الإنسان ذلك المجهول " واعتبرها مصدراً للجهالة المتعالية في كل الموضوعات الإنسانية وفي مقدمتها موضوع " الإنسان " بالذات .

وما دام أن خطة إخضاع كل موضوع للمقاييس المادية المحضة بما فيها موضوعات الاجتماع والتربية والدين والأخلاق والفن وغيرها هي القاعدة التي تنطلق فيها حضارة الإنسان المعاصر فإن الأمل في إعادة صنع الإنسان أمل ضعيف جداً بل هو في عداد المستحيلات .

إن خطة الحضارة العالمية التي تصنعها عقلية الرجل الغربي تتنافى تنافياً مطلقاً مع طبيعة الموضوعات الإنسانية المطروحة أمام العقول .

إذن فإن الشرط الأساسي لتحقيق نقلة صحيحة في ميدان الفكر العالمي ومن ثم في حقول التخطيط الشامل هو فضح " الفكر الغربي " وتسليط الأضواء على تناقضاته وتبيين ينابيع العناصر الانتحارية في صميم تكوينه .

من أجل ذلك نادينا في غير هذه المناسبة بإعلان سقوط الفكر الذي ما نزال نستورده من الخارج وطالبنا في إصرار ووعي قاصد بالاستغناء عن معطيات الحضارة الغربية في الموضوعات ذات الطابع الإنساني والاقتصاد على استيراد منجزات التقنية العصرية وحسب .

وقد يظن البعض أننا بهذا المطلب قد عدنا إلى تعريف الأستاذ رودنسون حين أعلن بأن " الحداثة العصرية تعني السيطرة على التقنية " ، لكن الحقيقة غير ذلك . فنحن ننكر على هذه السيطرة أية فاعلية إيجابية ما لم ترتبط بموقف حضاري نابع من المعاني الأصيلة لحقيقتنا الإسلامية التي يجب أن نحررها من جهالة المتعالين الذين يصرون على اعتبار أنفسهم سدنة لهذه الحقيقة وعلى الزعم بأنهم المقصودون من قوله تعالى : " إنَّما يخشى اللهَ من عِبادِه العُلمَاءُ " ..

فالعلماء هنا ليسوا الذين يقفون عند النصوص القديمة وهم في جهل مطبق بمنجزات التكنيك وبالحقائق الكونية التي أشار الله سبحانه وتعالى إليها في قوله ((سنُريهِم آياتِنا في الآفاقِ وفِي أنفُسِهِم)) بل هم الذين وسعوا كل ما حققه

البحث وأثبتته التجربة الموضوعية ، علماً ومعرفة . وليقرأوا من سورة فاطر الآية الكريمة التي ربطت خشية العلماء من الله بمعرفتهم لآيات الله في السماء والأرض . قال تعالى : " أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (27) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28)" ..

صدق الله العظيم ...